

من أجل مقارنة جديدة لتحقيق المخطوط

د. لطيفة عبّو جامعة تلمسان

مقدمة:

إنّ الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله، أمّا بعد:

يقول عبد المجيد دياب: "تراث كلّ أمة هو رصيدها الباقي، وذخيرتها الثابتة ومدّخرها المعبر عمّا كانت عليه من تقدم في كلّ مجالات الحضارة والثقافة"⁽¹⁾.

امتّن الله على المسلمين أن بعث فيهم علماء صالحين وهبوا أنفسهم وأموالهم لخدمة التراث فعكفوا على تقريب العلوم العربية المختلفة ونثرها بين الناس ولا نزال ندوق جمال ذلك التراث الثمين ونتنفس ونمأّأ به صدورنا وعقولنا فإنّها متعة وأبما متعة...".

هذا التراث الضخم... جدير أن نقف أمامه وقفة الإكبار والإجلال، ثم نسمو برؤوسنا في اعتزاز وشعور صادق الفخر والغيطة والكبرياء...".

رغم أنف الكائدين، وأعتقد أن الحاجة العلمية لبحث التراث العربي الإسلامي ما زالت قائمة على الرغم من الجهود العلمية التي بذلها علماء عرب وأجانب منذ وقت بعيد وحتى اليوم وعليه في هذه المداخلة سأحاول التفتيش والبحث بين صفوف رجال الأمة العربية لتقدير ما قاموا به من أعباء خير قيام وتأمين ما قدّموه من مردود وإنتاج في نقل علم تحقيق النصوص ونشرها ولربّما كان البعض يظنّ بل هم على يقين بأن علم التحقيق ما أصبح علما قائما بذاته له مناهجه وطرائقه وقواعده ومؤلفاته إلّا مع بزوغ علم آخر جديد من هذا العلم وهو علم المخطوطات الكوديكولوجيا^(*).

يقول شوقي ضيف: لقد كانوا يعرفون كل القواعد العلمية التي تتبعها في إخراج كتاب لا من حيث رموز المخطوطات فحسب بل أيضا من حيث اختيار أوثق النسخ لاستخلاص أدق صورة للنص، ولعل خير ما يمثل عملهم في هذا الجانب إخراج اليوناني حافظ دمشق المشهور في القرن السابع الهجري لصحيح البخاري⁽²⁾.

تأكيد الدكتور شوقي ضيف لمنهج اليوناني في علم التحقيق حجة دامغة واعتراف بالسبق والأولوية لعلمية المنهج اليوناني في فنّ التحقيق انطلاقا من هذا الاعتراف سأعقد مقارنة بين اليوناني كشاهد عن التطور

1- تحقيق التراث الغربي: منهجه وتطوره عبد المجيد دياب، ص9، القاهرة، 1983م.

*- الكوديكولوجيا: العلم الذي يدرس الكتاب والمخطوط أي علم آثار الكتاب، ومعنى ذلك أنّه يهتم بدراسة مختلف مظاهر الصنّاعة المادية الأولية للكُراس أو المخطوط. ينظر: مدخل إلى علم المخطوط، جاك لومبير، ترجمة مصطفى طوي، ط1، الوراقة الوطنية، المغرب.

2- مجلة المجلة العدد الأول سنة 1965. عنوان تحقيق تراثنا الأدبي.

العلمي في حقل التحقيق وبين المنهج الهاروني (عبد السلام هارون) كشاهد عن الاستمرارية في مسار التطور والرقى في حقل التحقيق أيضا.

وتكون البداية بالمنهج اليوناني:

أولا: من هو اليوناني:

"ولد أبو الحسين علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن علي اليوناني الحنبلي ببلبك في حادي عشر من رجب سنة إحدى وعشرين وستمائة 621" (1).

والده: واليوناني سليل أسرة علمية عظيمة، فأبوه الشيخ الفقيه الحافظ، تقي الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى بن أحمد بن علي اليوناني البعلبكي الحنبلي المولود سنة 572 ببلدة يونين (2).

شيوخه: نشأ اليوناني في حجر والده الإمام العلامة فأسمعه أبوه الكثير، وكان أبوه يحضره مجالس البهاء عبد الرحمن للسمع لما ابتداء يصلح لحضور مجالس العلم لو كانت هذه طريقة أهل العلم في إحضار أبنائهم الصغار لمجالس كبار العلماء، وتحصيل الإجازات لهم رغبة في علو السند... (3).

وسمع من ابن صباح، وابن اللّتي والإربلي، وجعفر الهمداني، وموسى بن محمد صاحب دمشق وعن بالحديث وضبطه وباللغة، وحصل الكتب النفيسة، وكان وقته عظيم النظر في بابة حسن الملتقى بلا ملق، جاريا على سجيته على المكارم دينه متين، وهديه كمبين كثير الهيبة، يحفظ أصحابه في الحضور والغيبة وكان مقبول القول والصورة (4).

منهج اليوناني في كتابة أصل صحيح البخاري:

- السماع (*) .

1- الدرر الكامنة، ج3، ص58 دار الكتب العلمية بيروت 1418، أيضا شذرات الذهب من أخبار من ذهب لابن العماد، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار بن كثير، ط1، دمشق- سوريا.

2- يونين: نسبة إلى قرية يونين إلى الشمال من بلبك يونان أيضا من قرى بلبك ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج5، ص517، دار الكتب العلمية 1410، بيروت.

3- ينظر: ذيول العبر الذهبي، تحقيق: أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، ج4، ص5، دار الكتب العلمية، بيروت.

4- ينظر: الدرر الكامنة، ج3، ص58.

(*)- اتجه علماء الحديث إلى العناية بإثبات السماع على كتب الحديث بعد أن أصبح الاعتماد في نقل السنة على المصنفات التي تجمع بين دفتيها قدرا كبيرا من الأحاديث النبوية، ولذا أصبح من المؤلفين أن تجد في كتب الحديث وأجزائه سماعات عديدة للعلماء وطلاب العلم يشبتون فيها سماعتهم بهذه الكتب أو الأجزاء عن مؤلفيها، أو روايتها أو غيرهم من أهل العلم، وذلك بأسانيدهم إلى ما تلقوا عنه والهدف من ذلك يكمن في توثيق النص وإثبات تلقيه من مصدره أو مصدر موثوق به، وإثبات حق الأطراف التي شاركت فيه بأنها سمعت هذا الأصل وأن لها الحق في روايته وإجازته للآخرين. تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل، عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، ص305، مكتبة الملك فهد الوطنية 1415، الرياض.

- إسماعه.

- الحفظ والاستظهار أمثلة من العلماء.

- جمع من نسخ صحيح البخاري ما لم يجمع لغيره في زمانه.

- عقد واحدا وسبعين مجلسا لضبط نص الكتاب، وتوثيق فروق النسخ، ويوجهها وجملة من أفاضل علماء الحديث ينظرون في نسخ موثقة بين أيديهم أمثال ابن مالك، وهذا ما يعرف عند المحققين بإصلاح الخطأ، ويقيدون ما يقول حتى تمّ الكتاب وعرفت النسخة التي بين يديه بالنسخة الأصل والنسخ التي كتب عنها يصدر عرضها بالنسخة الفرع.

وفاته: توفّي اليونيني في شهر رمضان سنة 701هـ⁽¹⁾.

منهجه في التحقيق:

- المقابلة بين النسخ: كان اليونيني يقابل بين النصوص المختلفة الواردة في النسخ حيث اجتمع له رحمه الله أربع عشرة نسخة من نسخ صحيح البخاري مع أصلي سماعي الحافظ أبي محمد المقدسي. لتحقيق الرواية والوصول بتلك النصوص إلى الدرجة القصوى من الصحة، يقول رمشان عبد التواب في كتابه مناهج تحقيق التراث بين القدماء والمحدثين، أنّ العرب قد سبقوا علماء أوروبا إلى الاهتداء للقواعد التي يقابلون بها بين النصوص المختلفة لتحقيق الرواية... ويمثل لذلك بصنيع اليونيني في تحقيق روايات صحيح البخاري⁽²⁾.

الخطوة الثانية التي كان يتبعها اليونيني في منهج تحقيقه للصحيح البخاري بإعطاء رمز لكل النسخ التي كان يقابل بها.

وهذا من عمل رجال الحديث يقول الدكتور دياب أنّ رجال الحديث كانوا يضعون رموزا لنسخهم في كثير من الأحيان مثل الحافظ اليونيني الذي أخذ بهذا النهج في نسخته (صحيح البخاري) إذ قابلها على عدة نسخ وكان يرمز لاختلاف النسخ برموز تماما مثل ما يفعل المحققون المعاصرون، وكان يشير إلى المكتبة التي كانت توجد فيها مخطوطات صحيح البخاري⁽³⁾.

ثانيا: من هو عبد السلام هارون:

مولده: ولد عبد السلام هارون في الإسكندرية عام 1909، ونشأ في بيت كريم من بيوت العلم فجده لأبيه هو الشيخ هارون بن عبد الرازق عضو جماعة كبار العلماء.

(1)- ينظر: تذكرة الحفاظ الذهبي، ج4، ص1440، دار المعارف الهندية.

(2)- ينظر: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، رمضان عبد التواب، ص13، مكتبة الخانجي، 1406، القاهرة- مصر.

(3)- ينظر: تحقيق التراث العربي، منهجه وتطوره، عبد المجيد دياب، ص70.

أبوّه: هو الشيخ محمد بن هارون كان يتولى -عند وفاته- منصب رئيس التفتيش الشرعي في وزارة العدل. أمّا عمّه هو الشيخ أحمد بن هارون الذي يرجع إليه الفضل في إصلاح المحاكم الشرعية ووضع لوائحها. تربيته: تربي في كنف أبيه فحفظ القرآن والكتابة والتحق بالازهر عام 1921 حيث درس العلوم الشرعية والعربية، ثمّ التحق بتجهيزية دار العلوم في 1924 وتلمذ فيها للشيخ محب الدين الخطيب...⁽¹⁾. نال البكالوريا في عام 1928 من دار العلوم، ثمّ أتمّ دراسته في دار العلوم العليا في عام 1932 بعدها عين مدرّسا لتعليم الابتدائي.

في عام 1945 عين مدرّسا أول بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية وفي عام 1950 نقل أستاذا مساعدا بكلية دار العلوم بالقاهرة، ثم عين رئيسا لقسم النحو بها في عام 1959، وفي عام 1966 سافر إلى الكويت وأسهم في تأسيس جامعتها، وأسس قسم اللغة العربية وقسم الدراسات العليا بها ورأسهما حتى عام 1975.

وفي عام 1969 اختير عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ثم انتخب أمينا عاما للمجمع في عام 1984، حصل على الجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية في التحقيق والنشر عام 1950 وعلى جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العالمي عام 1981⁽²⁾.

علمه ونشأته: "حقق كتاب متن الغاية والتقريب: للقاضي أبي شعاع الأصفهاني في سن مبكرة السادسة عشرة من عمره عام 1925 وقرر هذا الكتاب رسميا على الطلاب آنذاك وكتب عليه: ضبط وتصحيح ومراجعة الشيخ عبد السلام هارون"⁽³⁾.

"والشيخ هارون يعدّ من أكبر المحققين المثابرين في عصره، وأشهرهم، لغزارة إنتاجه في التحقيق إذ حقق نحو مئة وخمسة عشر كتابا، كما أن له مؤلفات كثيرة تزيد على اثني عشر كتابا، وبعض كتبه وتحقيقاته يقع في مجلدات، كما له بحوثا ومقالات منتشرة في المجالات والدوريات العربية ويعدّه بعض الباحثين في المرحلة الرابعة من مراحل تحقيق التراث العربي عموما وفي مصر خصوصا بعد مرحلة المطبعة الأهلية ومطبعة بولاق، ومرحلة الناشرين النابحين، ومرحلة دار الكتب المصرية"⁽⁴⁾.

1- قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث، عبد السلام محمد هارون، ص4، مكتبة السنة، ط1، 1988، القاهرة- مصر.

2- ينظر: المرجع السابق، ص45.

3- ينظر: المرجع السابق، ص95-96.

4- مدخل إلى تاريخ نشر التراث، محمود محمد الطناحي، ص90، الخانجي القاهرة، ط1، 1984/1405.

وفاته: توفي الشيخ عبد السلام هارون رحمه الله في القاهرة في شهر أبريل سنة 1988، بعد حياة علمية حافلة في خدمة للتراث العربي، يقول الطناحي فيه: "إنه لم يخط أحد في التراث سطرا إلا ولهذا الرجل عليه منّة، وذلك أنه لا تكاد تجد قائمة مراجع تراثية إلا وفيها من تحقيقات شيخنا"⁽¹⁾.

منهجه في التحقيق:

- تبدأ عملية التحقيق عند عبد السلام هارون بأول خطوة وهي فحص النسخ وقد نسّي هذه الخطوة ما قبل عملية التحقيق، فهو ينبّه على دارس النسخة الأصلية من المخطوط أن يدرس الورقة ليتحقّق من عمرها، ولا ينخدع بالتواريخ التي قد تكون مزيفة ولا بآثار العثّ والآرضة، لأنّها ليست دلالة قاطعة على القدم.

- دراسة خط النسخة الأصلية جيّدا وإطراده في النسخ كلّها.

- دراسة المداد الذي كتبت به النسخة الأصلية.

- دراسة عنوان المخطوط وأيضا ما على المخطوط من إجازات وسماعات وتمليكات وقراءات وتعليقات وغيرها.

- النّظر في أبواب الكتاب وفصوله وأجزائه حتى يستوثق من كمال النسخة وصحّة ترتيبها مع الانتباه إلى ما قد يثبت في أواخر الصّفحات اليمنى من التعقيبات، وأيضا النّظر في خاتمة الكتاب لعلّه كتب فيها اسم النّاسخ وتاريخ النّسخ وتسلسل النسخة⁽²⁾.

الخطوة الثانية نمثلها في عملية التحقيق عند عبد السلام هارون تبدأ بتحقيق العنوان ثمّ تحقيق اسم المؤلّف وبعدها تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلّفه وتنتهي إلى تحقيق متن الكتاب.

وبهذا يتلخّص منهج التحقيق عند عبد السلام هارون في هذه النّقاط المعروضة سابقا. وما يأتي بعد ذلك أرى أنّها جملة من المعارف قدّمها عبد السلام هارون لإتمام فنّ التحقيق بالنّسبة للذّين يتعلّمون هذا الفنّ وهذا نتاج عن غزارة علم الرّجل في فنّ التحقيق وأيضا عن كثرة ممارسته له.

السؤال الذي نطرحه في هذا المقام؛ أين يلتقي اليونيني وعبد السلام هارون في علم التحقيق؟ عند قراءة لكتاب عبد السلام هارون (تحقيق النّصوص ونشرها) وجدت أنّ هذا الأخير في عرضه للصّعوبات التي تواجه المحقّق وتعرقل عملية التحقيق بذكر الطّريقة المثلى لمعالجتها حيث يقسّم ذلك إلى أهداف محدّدة منها:

- جمع أكبر عدد ممكن من نسخ الكتاب ومقابلتها بدقّة وهذا ما وجدناه عند اليونيني حيث اجتمعت عنده (اليونيني) أربعة عشر نسخة من صحيح البخاري فقابل بينها ليتحقّق من صحّتها.

1- المرجع نفسه، ص 99.

2- ينظر: تحقيق النّصوص ونشرها، عبد السلام هارون، ص 60، القاهرة، 1374هـ/1954م.

- تكرار قراءة المخطوط حتى يألف الخطّ وذلك ما وجدناه عند اليوناني أيضا كان يقرأ النسخ (صحيح البخاري) عدّة مرّات.

- اللجوء للمراجع التي يضمن أنّ المؤلّف استقى منها أو استقت منه ومقابلة هذا على ذلك، كذلك اليوناني عقد واحدا وسبعين مجلسا حيث كان يجلس ويقرأ النسخ وابن مالك التّحوي يتابع ويدقق وينظر في الألفاظ ويوجّهها مع جملة من أفاضل علماء الحديث كانوا يتابعونه وهم ينظرون في النسخ الموثّقة بين أيديهم.

- التّأني في فهم النصّ كذلك اليوناني فعل ذلك وتمثّل في قراءته المتواصلة للنسخ.

- استخراج الفهارس حيث وضع الشيخ عبد السلام هارون لكلّ مفهرس علامة على ما يريد فهرسته، ووجدنا أنّ اليوناني سار على نفس النهج حيث كان يوثّق فروق النسخ برقام (أرقام) يعني رموز، فعلاّمة أبي ذرّ الهرويّ كان يرمز لها بهذا الرّمز (0) والأصيلي (ص)، وابن عساكل الدمشقي (ش)... إلخ.

- يؤكّد عبد السلام هارون على عملية ضبط النصّ أثناء التحقيق وترجيح لبعض الروايات، كذلك اليوناني فعل ذلك وبالغ في ضبط ألفاظ الصّحيح جامعا فيه أيضا الروايات ومرجّحا لبعضها.

يعدّ اليوناني إمام المحقّقين وقُدوة العلماء والمؤلّفين، صاحب الفضل في الحفاظ على صحيح البخاري من الضياع والتّحريف سابق المستشرقين في تحقيق النّصوص وضبطها وموافقتها لطرائق الضّبط والدقّة ومن قبل زمن اليوناني فهذا البخاري إمام أئمة الحديث يعدّ من المحقّقين البارعين للنّصوص حيث يقول: "ما أدخلت في كتابي إلاّ ما صحّ وتركت من الصّحاح لحال الطّول، فكان يقارن بين الروايات وينظر ويختار على بصيرة وهل التحقيق إلاّ ذلك، لا بل لقد كان البخاري رضي الله عنه نفسه مسبوقا؛ ألم يقل هشام بن عروة عن أبيه أنّه كان يقول: كتبت؟ فأقول نعم. فيقول: عرضت كتابك؟ قلت: لا. قال: لم تكتب" (1).

إنّ العرض في تحقيق النصّ والتّثبت من عدم التّصحيح أو التّحريف يعدّ من قواعد فنّ التحقيق وهذا ما اكتشفه البخاري وربّما غيره من العلماء.

لقد اكتشف النّاس ضبط النّصوص وتحقيقها من الإمام البخاري ثمّ اليوناني إلى أن جاء عبد السلام هارون وأضاف في قواعد هذا الفنّ الجليل فرحم الله علمائنا الكبار.

إنّ أصول فنّ التحقيق عربيّة إسلامية محضة ونستشهد على ذلك في نهاية هذا المقال بما قاله رمضان عبد التّواب... "يضمن بعض الباحثين المحدثين من العرب أنّ فنّ تحقيق النّصوص فنّ حديث ابتدعه المعاصرون من المحقّقين العرب أو استقوه من المستشرقين الذين سبقونا في العصر الحاضر بعض الوقت في تحقيق شيء من تراثنا ونشره بين النّاس، ولكنّ الحقيقة بخلاف ذلك فقط قام فنّ تحقيق النّصوص عند العرب مع فجر تاريخ الإسلام، وكان لعلماء الحديث اليد في إرساء قواعد هذا الفنّ في تراثنا العربي، وتأثّر بمنهجهم هذا أصحاب العلوم المختلفة وإنّ كثيرا ممّا نقوم به اليوم من خطوات في فنّ تحقيق النّصوص ونشرها بدأ من جمع المخطوطات والمقابلة بينها

1- ينظر: مجلّة الجامعة، مجلد 10، العدد 01، ص228.

مرورا بضبط عباراتها وتخرّيج نصوصها وانتهاءً بفهرسة محتوياتها لمّا سبقونا به أسلافنا العظام من علماء العربية الخالدة...»⁽¹⁾.

(1) - ينظر: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، رمضان عبد التواب، ص145.